حكاية من العقيلة

الخيمة تتلاعب بها الريح، وبداخلها طفلة جائعة تنوح، الأم حائرة لا تدري ماذا تفعل .. الأب عندما اشتد غضبه وأظلمت الدنيا أمام عينيه، قفز مهرولًا نحو الخلاء، حيث تراءت له الخيام في أشواط بداخلها كتل بشرية بين الحياة والموت، خيام لا تعد ولا تحصى، مزروعة وسط صحراء قاحلة وكثبان رملية .. عند نهاية كل شوط من الخيام تنتصب المشانق تبعث الذعر والهلع في القلوب، خيام محاصرة بالأسلاك الشائكة، والجند المدججون بالسلاح المنتشرون هنا وهناك، ما إن ابتعد عن شوط من الخيام حتى تسمر مكانه، من هول ما رأى رجل طويل كالنخلة السامقة، بلون الليل، كان بين يديه سوط يلهب به ظهر عجوز، يصرخ في وجهها وهي تتأوه وتتألم: هل تتأخرين مرة أخرى أيتها الشمطاء؟ كان يجلدها بالسوط في قسوة وعنف، واصل سيره، بعد خطوات اقترب من خيمة مهترئة،

أمامها يقف رجل مسن، وهو يبكي حظه السيء ويومه التعس، وهو يردد .. (وين الغالي يا دار ...) تركه ومضى في سبيله وتمتم قائلًا:

ـ أمثالك كثر بداخل هذا المعتقل، من الذين أضاعوا عقولهم وفقدوا صوابهم واصل سيره ألتقى بشيخ مسن كانت تبدو عليه كآبة ولاسيما الأسى بادره قائلًا:

ـ هل أنت مريض أيها الشيخ؟ أجابه في حزن وكآبة:

ـ (ما بي مرض غير دار العقيلة وحبس القبيلة، وبعد الجبا من بلاد الوصيلة). اتجه نحو الأسلاك الشائكة والجوع يمزقه، ما إن لمح جربوعًا يمرق أمامه، حتى قفز يهرول خلفه وهو يهتف به:

أين تهرب مني أيها الجربوع؟ سرعان ما تحفز اليربوع ودفن نفسه في حفرته، واختفى تحت الأرض في نفق طويل.

عثر الرجل على قطعة حديد، شرع يحفر بها ويزيل التراب بيديه .. عندما أحس بالتعب والإرهاق، انتصب

واقفًا، وهو يمسح العرق الهابط عن عينيه، والتفت يمنة ويسرة وهو يغمغم:

ـ الكلاب صادروا كل شيء في المعتقل لم يدعوا لنا ما نقتات به .. انخرط في مواصلة الحفر، وإزالة الأتربة، وما أن وصل إلى نهاية النفق حتى كان الجربوع ينزوي مرتعشًا، قبض عليه بيديه كانت بطنه بيضاء وعيناه يقظتين، وشارباه يرتعشان ابتسم الرجل وهو يتمتم: يا لك من صيد ثمين ووجبة دسمة.

ما أن هم يستدير به إلى الخلف، حتى أحس بعقب بندقية يسدد بين كتفيه، بقسوة التفت إليه كان أحد الحراس «المصوع» بادره الحارس في غضب:

ـ تحاول الهرب أيها الحقير أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي ..

ضربه بإخمص البندقية على كتفه بقسوة وعنف، حتى سقط اليربوع من بين يديه، وما إن وطأت أقدامه الأرض

حتى أطلق ساقيه للريح، واختفى هناك خلف الأسلاك الشائكة، صرخ في وجهه الحارس من جديد:

ـ لابد من معاقبتك أيها القذر.

ساقه أمامه نحو «كابو» المعتقل بينما الرجل يردد أبيات ذلك الشيخ العجوز الذي شنقت ابنتاه أمامه في المعتقل.

«ما بي مرض غير دار العقيلة .. وحبس القبيلة .. وبعد جبا من بلاد الوصيلة».